/ الفصل الخامس /

النظم الاقتصادية :- التجارة

1- تطور التجارة في الاسلام .
2- أثر التجارة .
3- طرق المواصلات النهرية.
4- الطرق البرية .
5- التجارة الخارجية.

أ-التجارة مع الصين ب-التجارة مع الهند
ج-التجارة مع اوربا د-التجارة في البحر لمتوسط

1- تطور التجارة في الاسلام :

كان للعرب قبل الاسلام معرفة بالتجارة وخبرة بها ،ولها عندهم منزلة مرموقة ولما جاء الاسلام واتسعت الفتوحات وأرتقت الزراعة والصناعة نشطت التجارة، واتسعت حتى أصبح للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلاد العالم، وامتدت تجارتهم الى الشرق حتى وصلت الى الفلبيين والصين والى الغرب وصلت الى بلاد الفرنجة ،والى الجنوب وصلت الى نيجيريا والحبشة، وساحل أفريقيا، والى الشمال حتى وصلت الى بلاد الروس التي ظلت الى ما بعد الحروب الصليبية ، هي الطريق بين شمال أوربا والشرق .

وسرعان ما صبح كثير من المدن الاسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري البري والبحري،ومن هذه المدن ، بغداد والبصرة والقاهرة ، والاسكندرية ، وسيراف ، واصفهان[1]، ومرافئ الشام كطرابلس وصيدا،وبيروت. وكانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الاسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الاقل .ومما ساعد العرب في رحلاتهم البحرية مهارتهم في ركوب البحر ومعرفتهم بالبوصلة ، والانتفاع بها فتمكنوا من ارتياد البحار في جرأة ومهارة فائقة حتى ملكوا في أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب "وحملت سفنهم وقوافلهم المنسوجات والاطياب والبخور، والسكر والقطن آنية الزجاج الى أقاصي آسيا وإفريقية ،وعادت منها محملة بالتوابل والكافور، والحرير، من أقاصي القارة الاسيوية ،والعاج ،والابنوس ، والرقيق الاسود من القارة الافريقية

(1)اصفهان : بلغ من أزدهار المبادلات المالية والتجارية بها أنه كان بها مائتا صراف يجلسون جميعها في سوق يسمى سوق الصرافين ،آدم متز ، ج2، ص375

2- أثر التجارة :

أدى نشاط المسلمين التجاري الى أبتكار بعض النظم المالية والتجارية التي عرفتها أوربا عنهم وقد أثبت العالم جرسهوب أن اول من عرف نظام الجولات المالية هم العرب ،وعنهم أخذتها أوربا في القرن العاشر عن طريق أسبانيا وأيطاليا ، وقال المستر كراندال : " وفي التجارة كان الاسلام رائد العالم الحديث في إنشاء الاتحادات التجارية ،واستعمال الشيكات وخطابات الاعتمادة،والايصالات ووثائق الشحن ".

وفي العصر الذهبي للدولة العباسية "أنشأ التجار لأول مرة نقابة مسؤولة عن راقبة المعاملات التجارية ، ومنع التدليس (هو الغش تجاري في المعاملات والعقود)، وكان رئيسها ينتخب من بين الاعضاء الممتازين ويسمى "رئيس التجار"، كما يسمى أعضاء النقابة "الامناء".

وقد استفاد المسلمون من تجارتهم فضلا عن الغنى والثروة المالية ،خبرة بشؤون الحياة ،ومعرفة بأخلاق الناس، وأصبحت التجارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري مظهر من مظاهر أبهة الاسلام وحضارته،ولها السيادة في البلاد، وغدت سفن المسلمين، وقوافلهم تجوب كل البحار ،واحتلت المكان الاول للتجارة العالمية. وبذلك أضمحلت المكانة العالمية للتجارة الهيودية ، وقد كانت تستأثر بأهم ما كانت تصدره أوربا وخصوصاً الغلمان والجواري.

ونشأ عن هذا التقدم التجاري إزدهار الجاليات الاسلامية في كثير من الاطراف التي تغلب عليها غير المسلمين ،فكان يرأسهم مسلم ، ولايقبلون حكم غيرالمسلمين فيهم .....، ومن هذه الجاليات ماكان في بلاد الخزر ، والسرير ، واللان ، وغانة ، وكوغة ، والهند ،والصين بل وكوريا أيضا.

يقول السيد أميرعلي "اخترع العرب البوصلة البحرية التي ساعدتهم على القيام برحلات الى جميع أنحاء العالم ، طلبا للعلم أو الاتجار ، فأسسوا المستعمرات من شاطئ إفريقيا حتى الجزائر الارخبيل الهندي ، وعلى سواحل الهند ، وجزيرة مالايا ، وتوغلوا في بلاد الصين ؛ وغدت البصرة ثغراً تجارياً هاما تتاجر مع الهند ، وكاتاي ، واخترقت قوافلهم شمالي إفريقيا ، وصحراءها عن طريق المغرب، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الابيض المتوسط الى أسبانيا ،وصقلية،وإيطاليا،وفرنسا ، واصبحت طرابزون حلقة التجارة مع الدولة البيزنطية ، ونشطت قوافل بغداد الى اواسط آسيا ، وشمال الهند محاذية الخليج الفارسي ،وامتدت تجارتهم الى بحر قزوين والبحر الاسود ،وتغلغلوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطئ البلطيق وداخل السويد .

3-طرق المواصلات النهرية :-

ان الطرق النهرية هي التي تسلك دجلة والفرات ،ومن المعلوم ان بغداد تقع على نهر دجلة وكانت تأتيها اليها الكثير من بضائع الجزيرة والموصل والمدن الواقعة في شماله ،وتاتيها أيضا بضائع من البصرة وواسط والمدن الواقعة في جنوبه ، أما الفرات فكان يرتبط بدجلة بنهر عيسى الذي تنقل فيه السلع من أعالي الفرات ومن منطقة الكوفة ،أما المجاري الجنوبية من هذين النهرين فكانت تعرقلها السدود والاهوار والفروع الصغيرة التي تتعرض هذين النهرين في أطرافها السفلى .

4-الطرق البرية :-

أما الطرق البرية فأهمها الطريق الذي يربط بغداد بالمدن المقدسة في الحجاز ،وهو يمر بالكوفة ويخترق صحراء جزيرة العرب ماراً بكثير من المحطات التي تتوفر فيها المياه ،وهذا الطريق يسلكه الحجاج الذين يؤم منهم البيت الحرام سنوياً عدد كبير، ويستخدم هذا الطريق لأغراض عسكرية ,و ادارية وتجارية ، وبالنظر لما لهذا الطريق من أهمية كبيرة فقد عنت به الدولة . فعبدت العقبات فيه ،وحفرت عليه الابار وعنت بتوفير المياه في محطاته ، ووضعت عليه إشارات الاميال والمنار، وولت عليه قوافل الحجاج عناية كبيرة .فكانت تعين أميراً تختاره من كبار رجال الاسرة العباسية ، وترافق هذه القوافل قوات عسكرية لحمايتها ومنع القبائل من الاعتداء عليها.

وتتفرع من بغداد طرق تربطها بواسطة البصرة والاحواز في الجنوب وطرق أخرى تربطها بالموصل، او بشمال بلاد الشام ،وتسير هذه الطرق موازية لنهري دجلة والفرات ، غير ان الطريق الرئيس هو الذي يربط بغداد بالمشرق ، وهو يمر شرقاً بالمدن الواقعة على نهر ديالى،ثم يسير الى همدان فتاري؛ فنيسابور؛ فمرو ،ويسير هذا الطريق الى بخارى وسمرقند ، وتتفرع من هذا الطريق طرق أخرى تربطه بالمدن التي تقع على مسافة منه . إن لهذا الطريق أهمية كبيرة منذ العصور القديمة فقد كانت تسلكه تجارة الصين البرية ، وكان يسمى في القديم (الطريق السلطاني) وقد أزدادت أهميته في العصور العربية الاسلامية لأنه يربط بغداد بالهضبة الايرانية وخراسان وبلاد التركستان، وتقع عليه مدن كانت لها أهمية كبيرة في الدولة العربية الاسلامية .

5-التجارة الخارجية :-

أن الدولة العربية الاسلامية كانت أراضيها وأسعة وخيراتها كثيرة ومنتوجاتها وفيرة ، ومع هذا فقد كانت تعوزها بعض السلع المتوفرة في الاقاليم البعيدة وكان لا بد أن تستوردها من تلك لبلاد الامر الذي أدى الى إزدهار التجارة معها . وأهم الاقاليم الخارجية التي كات تتاجر مع البلاد العربية الاسلامية الصين ، والهند وجزر الهند الشرقية ،وأفريقية وأوربا .

(أ)- التجارة مع الصين :-

أن بلاد الصين واسعة تمتد من أواسط آسيا حتى المحيط الهادي وقد عرفت منذ أقدم ألازمنة بإنتاجها للسلع الكمالية التي تتطلب مهارة في الصنع كالحرير والمرايا ،والادوات الخزفية والخشب والمحفور ،وكانت تجارة الصين تسلك الطريق البري الذي خترق أواسط آسيا ثم يمر بخراسان سالكاً الطريق السلطاني الذي تم ذكره سابقاً، غير ان بعض تجارة الصين كانت تنقل بحراَ عن طريق أرخبيل الملايو والمحيط الهندي فالخليج العربي .

(ب)- التجارة مع الهند :-

أما الهند وجنوبي شرقي آسيا فأن العرب كانوا يستوردون منها منذ أقدم الازمنة التوابل والبهارات ،والاحجار الثمينة ، والاخشاب الصلبة وخاصة الساج . وهم يستوردون من أفريقية الذهب؛والعاج؛والتوابل وكان أهل اليمن يحتكرون الملاحة في المحيط الهندي حتى القرن الاول الميلادي ، وظلوا يقومون بأكبر قسطمن تجارته بعد ذلك غير انه في العصور الاسلامية كانت معظم التجارة البحرية مع الهند تسلك الخليج العربي وكانت تسير موازية للشواطئ الغربية،لأن الشؤاطئ الشرقية وعرة وقليلة المياه ، وقد ساعد هذا على أزدهار المدن في عمان والبحرين .وكانت السفن التي تسير في هذا البحر تصنع من الخشب وتربط بألألياف ولا تستعمل فيها المسامير ، وتتعرض الملاحة البحرية الى كثير من الاخطار التي تظهر عند حدوث الغيوم .وقد أدت هذه الاخطار الى ارتفاع أسعار السلع التي تستورد في البحر وكان التجار يفضلون سلوك الطرق البرية كلما أمكن ذلك .

(ج) التجارة مع اوربا :-

أما مع اوربا فإن العرب كانوا يستوردون من روسيا وبلاد البلطيق الفراء والكهرب والصفيح ،وكانوا يذهبون الى روسيا بطريق بحر قزوين وبحر الفولجا، وقد وصلت تجارتهم الى بلاد البلطيق .لقد كان العرب المسلمون هم الذين يقومون بالتجارة ولذلك كونوا لهم جاليات في خانقو(كانتون) بالصين، وكذلك في الملايووسومطرة وعلى سواحل الهند وأفريقية ، كما وصلتنا أخبار عن رحلاتهم الى روسيا وبلاد البلطيق وأوربا الشرقية ، وقد وجدت في هذه االبلاد كميات غير قليلة من النقود ذه السلع .

(د) التجارة في البحر المتوسط :

أما في البحر المتوسط فإن العرب المسلمون أنشأوا لهم أساطيل تمكنوا فيها من فتح كثير من الجزر مثل قبرص وكريت وصقلية، وقاموا بمهاجمة شواطئ أيطاليا وفرنسا ، وكانت سفنهم التجارية تنقل السلع بين الاقاليم الاسلامية الواقعة على هذا البحر، ولم تكن تجارتهم واسعة مع أوروبا التي ظلت في القرون الاولى التي أعقبت حركة التحرير العربية تعاني من تأخر في الحياة الاقتصادية وفقر في السكان ،والثروة ثم بدأت ألأقاليم الاوربية تنتعش منذ القرن الرابع الهجري ، فبدأت التجارة تنمو بينها وبين بلاد العرب.

وأخذت أوروبا تستورد المصنوعات القطنية والمعدنية وكذلك المعادن الثمينة والتوابل من البلاد العربية والاسلامية وتصدر أليها الاخشاب . وقد ساعد أزدهار التجارة على نمو بعض الموانئ الايطالية وخاصة البندقية ، وجنوا التي أنشأت كل منهما سفنا للتجارة واستطاع تجار هاتين المدينتين بمرور الزمن السيطرة على الملاحة التجارية في البحر المتوسط ،وقد ظلت تجارة وروبا مع العالم الاسلامي تتدرج في النشاط والنمو الى أن أكتشفت أمريكا في سنة 1492فحول الاوربيون أنظارهم الى القارة الجديدة ،وبدأت أوروبا الغربية تنمو فتدهورت التجارة في البحر المتوسط .

المصادر والمراجع الخاصة الصناعة والتجارة :-

المصادر :-

المقريزي :الخطط المقريزية

اليعقوبي : كتاب البلدان

ابن حوقل : صورة الارض

الجاحظ : التبصر بالتجارة

الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة

المراجع :-

الادارة العربية في عز الاسلام –محمد كرد علي

الاسلام حضارته ونظمه / أنور الرفاعي

التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة /صالح احمد العلي

القاهرة /عبد الرحمن زكي

تراث الاسلام (فصل التجارة والجغرافية) /توماس ارنولد ترجمة جرجيس فتح الله